العرب
السبت 2020/02/22
السنة 42 العدد 11625

المصائر الأليمة لثلاث عمات يشبهن المرايا المتقابلة

«عماتي الثلاث» سيرة روائية بصوت أنثى بين حرب «السفر برلك» وآلام الحرب السورية

أن تبدأ من حكاية ما، لتجد نفسك في حكاية أخرى مختلفة تماما، هي قدرة الروائي على المسير بقرائه والدخول بهم من أبواب غير اعتيادية إلى الحكاية أو الفكرة التي يعالجها. تماما كما هو حال رواية "قواعد العشق الأربعون مثلا" لإليف شفق وغيرها الكثير من الأعمال الروائية، ليس آخرها رواية "عماتي الثلاث" للكاتبة السورية أسماء معيكل.

ثلاث نساء وتاريخ بلاد (لوحة للفنانة هيلدا حياري)

عواد علي
كاتب عراقي

تستعيد "داملا"، بطلة رواية "عماتي الثلاث"، للروائية السورية أسماء معيكل سيرة حياتها من غرفة صغيرة في إسطنبول، حيث تعيش بين جدرانها في عزلة، بعد الأحداث الملحمية التي عصفت ببلادها سوريا ودمّرتها.

> سيرة الكاتبة قادتها إلى نهاية غامضة، بعد أن وجدت نفسها في حالة ضياع متشظية بين الماضي والحاضر

ينحرف مسار السيرة بالكاتبة إلى استعادة سيرة عماتها الثلاث اللواتي تولّين تربيتها وكانت تناديهن جميعهن بأمي، ولكل واحدة منهن شخصيتها المتفردة، وحكايتها المميزة، وتفاجأ بأن شخصيتها ما هي إلا انعكاس لشخصياتهن وكأنهن حللن فيها، فحتى حينما تنظر إلى نفسها في المرآة تنعكس فيها صور عماتها بدلا من صورتها، وعبر سيرهن تكشف عن سيرة جدها العائد من "السفر برلك" وسيرة بلادها قبل نحو مئة عام، وكيف كانت أحوالها قبل الحرب التي انتهت إليها.

من الجد إلى بناته

تدور أحداث الرواية، الصادرة حديثا عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، في المكان نفسه الذي دارت فيه أحداث رواية معيكل السابقة "تل الورد"، فبطلة الرواية اسمها الأصلي سليمة على اسم خالتها المتوفاة، ونظرا إلى الحرج من ذكر اسمها في البيت حتى لا تثير الحزن، صاروا ينادونها دمعة لسخاء دموعها، وحينما انتقلت إلى تركيا، وعرفت صاحباتها قصتها سموها "داملا"، وهي تعني "دمعة" باللغة التركية.

تنتمي هذه الفتاة إلى تل الورد التي ترمز بها إلى سورية، ففيها نشأت وترعرعت، ثم انتقلت إلى حلب من أجل إكمال دراستها الجامعية، ثم إلى إسطنبول التي وجدت نفسها فيها وحيدة بعد أن عصفت الحرب الأهلية ببلادها، وبذلك جعلت الكاتبة من تل الورد مسرحا لأحداث روايتها الجديدة عبر خوضها في تاريخ المنطقة، فأحداث "عماتي الثلاث" تسبق أحداث روايتها "تل الورد"، وإن جاءت بعدها في النشر.

توزعت الرواية على سبعة فصول، جاء الفصل الأول بعنوان "الأرشيف العثماني"، وفيه تبدأ بطلة الرواية باستعادة سيرة حياتها بينما هي منكبة على تحقيق وثائق الأرشيف العثماني المرتبطة بفترة الحكم العثماني في بلاد الشام، بعد أن ابتعدت عن بلادها بسبب الحرب الأهلية التي عصفت بها، لكن اكتشافها لاسم جدها في إحدى الوثائق العثمانية التي تؤرخ لحملة "السفر برلك" يحرف مسار سيرتها إلى سيرة جدها لنتعرف في الفصل الثاني المعنون بـ"عائد من السفر برلك" على جدها الذي حارب مع الأتراك، ثم نجا من الموت بأعجوبة وعاد إلى تل الورد ليؤسس لعائلته فيها.

تقود سيرة الجد إلى سيرة العمات الثلاث اللواتي نشأت بطلة الرواية في أحضانهن، إذ فتحت عيونها عليهن وهن كبيرات ووحيدات وبلا أبناء، وقد خصصنها بحنانهن وعطفهن ورعايتهن.

عبر فصول متتابعة تكشف بطلة الرواية عن سيرة كل واحدة من العمّات، فتخص العمة الكبرى بالفصل الثالث تحت عنوان "بيضة العقر"، وتفرد الفصل الرابع "حزن أسود" للعمة الوسطى، وأما العمة الصغرى فتروي سيرتها في الفصل الخامس المعنون بـ"حمل وهمي"، وفي "علّية رحيمة" وهو عنوان الفصل السادس جمعت البطلة عمّاتها الثلاث في العلّية التي جمعتها بهن في ليالي الشتاء الباردة، وكشفت عن مسامراتهن، ومتعهن الخاصة وخلافاتهن وحكاياتهن عن الجن والضباع وغيرها.

بطلة متأرجحة

ختمت الرواية بالفصل السابع "ميراث عماتي" الذي عادت فيه البطلة إلى سيرتها التي قادتها إلى نهاية غامضة، بعد أن وجدت نفسها في حالة ضياع متشظية بين الماضي والحاضر، تتأرجح بين مكانين وزمانين، بين الوطن والمنفى، تعيش بجسدها في إسطنبول، وروحها عالقة في تل الورد، تحيا في الحاضر بروح الماضي وعماتها اللواتي تتمثل أقوالهن وأفعالهن في سلوكها وتصرفاتها، فتتشظى هويتها وتعيش حالة ضياع تقودها إلى مصير مجهول، حيث تختفي في نهاية الرواية بعد العثور على سيارتها التي تعرّضت لحادث على طريق غابات بلغراد في شمال إسطنبول، من دون أن تكشف الكاتبة عن مصير بطلتها إن كانت ماتت أو ما تزال على قيد الحياة.

اعتمدت أسماء معيكل في روايتها "عماتي الثلاث" بنية سردية تقوم على تقابل الشخصيات، فالعمات الثلاث هن أشبه بالمرايا المتقابلة اللواتي تعكس أطيافا للأحداث بحسب طباع كل عمة، وطبقا لمزاجها، ومنظورها للحياة، ومن خلاصة ما يجتمع على سطوح تلك المرايا الثلاث تنبثق أحداث الرواية التي تستعيد حقبة زاهية من تاريخ سوريا قبل أن تعصف بها أحداث الحرب الأهلية التي اجتذبت إليها أطرافا عديدة تورطت في اقتراف إبادة شبه جماعية للشعب السوري الذي تشرّد في المنافي، ونزح بين المدن، ولاقى الذل والهوان على يد نظام أسرف في التنكيل به.

ومع أن رواية العمات لتجاربهن مرّت من خلال عين الراوية، التي تنصرف إلى البحث في الأرشيف العثماني في إسطنبول، فإن خصوصية رواية واحدة من العمات الثلاث لتجربة حياتها احتفظت بطابعها الخاص، لكن مسار التجارب الثلاث صبّ في نهاية المطاف برؤية شاملة عبّرت عنها رؤية البطلة، التي وجدت نفسها تعيش تجارب عماتها أكثر من عيشها في مدينة كوزموبوليتانية مثل إسطنبول.

يُذكر أن أسماء معيكل روائية وناقدة وأكاديمية مهتمة بقضايا النسوية والدراسات السردية والثقافية، صدرت لها روايتان "خواطر امرأة لا تعرف العشق"، و"تلّ الورد"، ولها أربعة كتب نقدية "الأصالة والتغريب في الرواية العربية"، "الأفق المفتوح: نظرية التوصيل في الخطاب الروائي المعاصر"، "في تلقي الإبداع والنقد"، و"سيرة العنقاء: من مركزية الذكورة إلى ما بعد مركزية الأنوثة".

«مريم المصرية» بعيدا عن النصوص قريبا من الناس

حميد سعيد
كاتب عراقي

في كتابه "مريم المصرية، رؤية أخرى للسيدة العذراء" يعمد الكاتب المصري محمد الباز، إلى أن يقدّم في رؤيته هذه، السيدة مريم العذراء بعيدا عن النصوص الدينية، وهي كما نعرف كان لها حضورها في الكتب الدينية، القرآن الكريم والعهد القديم والعهد الجديد، ولكل منها نصوصه التي تفصح عن رؤية خاصة به عن السيدة مريم.

غير أنه بحصافة ووعي لم يمس أيا من هذه الرؤى، بل لقد أشار إلى بعض منها بشيء من التفصيل حينا وبالتلميح حينا آخر، وحاول بكثير من المتابعة الدقيقة أن يتناول حضورها في حياة المصريين، وخاصة المسلمين منهم، من دون أن يتجاوز حضورها في حياة المسيحيين المصريين. واجتهد المؤلف في أن يحيل هذا الحضور إلى عامل تاريخي، وتحديدا إلى رحلتها مع ولدها ويوسف النجار إلى مصر، هرباً من الملك هيرودوس الأول الذي كان يقتل الأطفال اليهود ممّن هم دون العامين من العمر، استهدافا لطفلها/ المسيح.

يقول المؤلف "جاءت السيدة العذراء هاربة وقلقة ومتوترة، تضم وليدها الصغير إلى صدرها، علها تحميه من الموت الذي يرفرف من حوله، وسعى خلفه ليحصد حياته التي لم تكن زهورها تفتحت بعد، ولأنها خائفة بما يكفي، فقد أحاطها المصريون، ليس برعايتهم وحمايتهم فقط، ولكن بحبهم أيضا".

ويقول عن المصريين الذين استقبلوا السيدة وكرّموها، "إنهم في النهاية أجدادنا، نفتقد اسمهم ورسمهم، لكن ما فعلوه معها يبقى ميراثا لنا، نتحرك به تجاهها حتى الآن، لا ننساه ولن ننساه".

وهذه الرحلة لم تغب عن تاريخ مصر في جميع العهود التي مرت بها، واستمر المصريون يذكرون ما عرفوا من تفاصيلها وما اقترن بها من أحداث، صغيرة كانت أم كبيرة، حيث يشير إليها المؤرخ المصري أبوالعباس تقي الدين المقريزي الذي ولد في القاهرة سنة 1364 وتوفي فيها أيضا سنة 1442.

وما يمنح إشارته إلى هذه الرحلة أهمية، كونه عرف باهتمامه بالتاريخ الاجتماعي للشعب المصري، وعادات الناس وتقاليدهم.

وممّا قاله عن الرحلة التي نحن بصددها "إن العائلة المقدسة حطت رحالها عندما قدمت إلى مصر، بالقرب من عين شمس ناحية المطرية وهناك استراحت إلى جوار عين ماء، غسلت فيه ثيابها وثياب طفلها الصغير".

ولهذا التناول معنى آخر، هو أن الاهتمام بتفاصيل علاقة السيدة العذراء بمصر، ظل مستمرا رغم مرور القرون وتغير الأحوال، عند المسلمين كما عند المسيحيين، لذلك فهي في رؤية محمد الباز، هي مريم المصرية، لا مريم المسيحية ولا مريم المسلمة. فهي في الفكر الشعبي المصري تشفع لهم جميعا وهي أم النور عندهم جميعا وجميعهم يسمون بناتهم باسمها.

وهي عند المسيحيين تتجلى عندما تضيق الدروب بصغارها، فتلهمهم الصبر على ما يلاقونه وتبعث لهم برسالة يتلقفونها عنها بحب وود وحنان. فهي موجودة تحنو على الضائعين وتجبر خاطر المكلومين.

وعند المسلمين هي سيدة نساء العالمين، لها سورة باسمها في القرآن الكريم، المرأة الوحيدة التي نالت هذه المنحة الإلهية.

وفي حالات التجلي يقف الجميع في انتظارها، كما نقل إلينا المؤلف ما شاهده في كنيسة الوراق في العام 2009، فلا فرق بين مسلم ومسيحي، وعندما تطل في وجوههم لا تستطيع أن تفرّق مسلمهم عن مسيحيهم، فالمسيحيون يردّدون تراتيلهم والمسلمون يقرأون سورة مريم.

ويقول "إن حالة من التماهي، تجمع بين المصريين والسيدة مريم، فكلاهما توفر على تاريخ من الأسى، وهذا الأسى هو الذي يجمع بينهما، وهم ينادون السيد البدوي والقنائي والشاذلي وفي لحظة يأس كبرى، ينادونها يا عذرا، ومن ألقابها في مصر، سلطانة الأرض والسماء".

إن كل ما أشار إليه الباز في كتابه عن الموقف الشعبي المصري من السيدة مريم العذراء والعوامل المؤثرة فيه، لا شك في أنه يفصح عن موقف موضوعي. لكنه أعادني شخصيا إلى مرحلة مبكرة من صباي وإلى جانب من الحياة الاجتماعية في مدينتي وفي الحي الذي ولدت ونشأت فيه.

فلم يكن الموقف الشعبي من السيدة مريم يختلف كثيرا عمّا هو عليه الموقف الشعبي في مصر، مع أن التركيبة الاجتماعية للمدينة لم تضم مسيحيين، والذين كانوا فيها من الموظفين وبعض الحرفيين وجميعهم جاءوا من مدن أخرى، من بغداد والموصل والبصرة وغيرها، غير أنهم بما كانوا عليه من إخلاص في عملهم الوظيفي والمهني ومن التزام اجتماعي وسلوك حضاري، فهم موضع احترام أبناء المدينة وتقديرهم.

في تلك المرحلة شاعت أغنية شعبية، كتبها وغناها شاعر شعبي، إذ كان يحب فتاة اسمها ليلى، فقال فيها "ليلى مريم العذرا، شما توصف يلوك إلها"، أي أنها مثل مريم العذراء، جميع الأوصاف الطيبة تليق بها. واستمعت إلى الكثير من الرجال والنساء يرددون هذه الأغنية، وحين أصبحت شابا وتعرّفت على الشاعر المطرب، حدثني قائلا "لقد وصلتني هدية بسبب هذه الأغنية من إحدى الكنائس في بغداد".

مريم العذراء في التراث القبطي لمصر

وعرفت أيضا أن النساء المسلمات في بغداد وفي غيرها من مدن العراق يذهبن إلى الكنائس القريبة من بيوتهنّ ويوقدن شموعا للسيدة العذراء، أما في مدينة الموصل، فإن الاحتفالات الكنسية بالقديسين طالما تحوّلت إلى أعياد لجميع أبناء المدينة. وقد عبر الجواهري عن هذه الرؤية الشعبية للسيدة مريم في قوله "وإن البغي التي تدّعي/ من الطهر ما لم تحز مريمُ".

> الاهتمام بتفاصيل علاقة السيدة العذراء بمصر، ظل مستمرا رغم مرور القرون وتغير الأحوال، عند المسلمين كما عند المسيحيين

لكن الاحتفاء بالسيدة مريم في المجتمعات الإسلامية، ليس مجرد احتفاء شعبي من دون مؤثر ثقافي ديني، وهذا ما أشار إليه الباحث الفرنسي ميشيل دوس في قوله "إن صورة السيدة مريم في القرآن، ليست أقل تمجيدا، منها في الأناجيل".

وهذا ما يذكرنا به المؤلف، إن الملحدين من جميع الأديان، نال منهم قسط كبير من الهجوم والتطاول والسباب والسخرية، والاتهام أيضا. ولا أريد هنا أن أتوسع في ذكر مقولات ميشيل دوس، لأنها قد تقودني إلى منطقة حوار الأديان وهذا ما لا أريده، ولأنني غير مؤهل للخوض فيه.